RUSTED RADISHES
BEIRUT LITERARY AND ART JOURNAL
مجلة بيروت الأدبية والفنية

سقوط عدو المرأة

أحمد وائل

قصة

بَكرتْ نادية بقدومها إلى المكتب، فهي لم تبت في بيتها، بل قضت ليلتها عند رفيقة جديدة، ولذة المغامرة شجعتها على الانكباب على العمل بحبّ وتفانٍ، ولكنْ يا هول ما خبّأ المكتب لمسؤولة شؤون العاملين حين وصلت إلى طابقه الواقع ببناية عالية في القاهرة: وجدت الباب مفتوحاً، وجميع أنواره مُضاءة ومكيفاته تعمل، وكل الشبابيك والمناور والمنافذ مفتوحة، والمياه تنهمر على الأرض. ليس كل ما سبق هو ما صدم نادية، بل رؤية زميلها المحرر الذي صار في خبر كان.

انقطعت عنه الحياة مثلما يموت كلّ نبات يُترك بلا ريّ، أو حيوان بلا طعام، أو حبّ بلا اهتمام.

في الحرّ سقط، بكل ألم، محرّر من أشجع المحرّرين، سيحزن الأدب العربي عليه طويلاً، فهو رجل من أخلص الرجال للأدب.

لفظ أنفاسه الأخيرة وهو يتصدى للرداءة والركاكة، يحرّر نصوص غيره، ويربّي في غير ملكه. لم يمنعه من القيام بمهمته المقدسة الحرُّ وعزُّه، وذلّ انقطاع الكهرباء والمياه. لم يتلقَّ في حياته شكراً أو محبة من كُتّابه، بل تحدثوا عنه بالسوء، دون حرج من شجارهم معه على كل تعديل يقترحه، أو رفضهم لكلّ خطأ يصوّبه، أو مجادلتهم لكلّ معلومة يدققها، أو تمسكهم بعناوينهم السخيفة الشاعرية عديمة المعنى مقابل أسلوبه في العنونة. وكثيراً ما شعر بكرههم له، وجرع منهم سمّ التعليقات، وشاف تلميحات الذم على السوشيال ميديا، عاش مكبوتاً مسموماً بكل هذه الطاقات السلبية التي بُثَّت فيه وعنه من هذه النفوس.

❂

من يكون هذا المحرر؟

- إنسان ذكي مشغول بالتحرير فقط.
- يتغذى طوال أيام الأسبوع على وجبات تُباع على الإنترنت.
- يبدّد راتبه على مواقع التوصيل.
- في الإجازة، يزور أمه في الريف لتدفئة معدته بطبيخ يديها الكريمتين.
- لا يدخن ولا يشرب الكحول، ويحمل في جيبه علبة سكّر صناعي لتحلية مشروباته.
- لم يتزوج ولم ينوِ، ولم تُعرف عنه حكايات غرامية أو عاطفية. بل يدمن تصفح مواقع التواصل وتطبيقات المواعدة، مثل أي عازب ليس لديه حياة اجتماعية (لن نذكر تاريخ تصفحه لمواقع البورنو اتباعاً لقواعد ذِكر محاسن الموتى).
- يسكن في بنسيون متواضع، ويفضل أحياناً النوم على كنبة المكتب عن العودة إليه.

صعدت روح المحرر إلى ربنا يوم انقطاع الكهرباء والمياه والإنترنت عن بناية عمله لأكثر من ستّ ساعات. لم يكن يوماً استثنائياً، لتكرار حدوث مثل هذه الانقطاعات، لكنْ يومها، كان المحرر ملتزماً موعدَ تسليم مادة ملفّ مهمّ، وهي مهمة خطيرة دفعته إلى الذهاب إلى المكتب نهاراً رغم الجو القاتل. فقد تجاوزت درجة الحرارة يومها ستّاً وأربعين درجة في الظل، وإن بدا مقرّ عمل المحرر ظلًا، فهو لا يعمل بالشارع بالتأكيد، لكنه يقع في الطابق الأخير من بناية شاهقة تتجاوز الأربعين طابقًا. وكما يعلم الجميع لا عزل يحمي سكان الطوابق الأخيرة في بلادنا المشمسة، فيكون الإنسان فيها مثل الفلاح الذي لا تغادر الشمس قفاه مجازاً. وحين انقطع التيار وتوقفت المكيفات عن هديرها المُلطف للحرارة، شعر المحرر بتجسد المجاز.

لم يجزع. تأكد من إغلاق كل منافذ الهواء لحبس البرودة لأطول فترة ممكنة، وقرر تقليل حركته وتنظيم تنفّسه وتجرع كميات محدودة من الماء لترطيب جسده. شغّل إنترنت موبايله لتنزلق ماكينة عمله نحو الشبكة البطيئة مع اندثار شبكة المكتب، وتابع تحرير المسودات بهدوء.

ذكر محاسن الموتى يقتضي توضيح أن المحرر لم يفكر في مغادرة المكتب، لعدم رغبته في النزول أكثر من أربعين طابقاً على السلم مفضلًا انتظار عودة التيار، وليس لما يُشاع من ظالميه وكارهيه من الكُتّاب عن إقامته في المكتب. لكن ذكر محاسنه يقتضي عدم المبالغة، فبيته ليس إلا سرير البنسيون.

في اليوم المشؤوم الذي مات فيه المحرر عمل على مسودات كاتبات. ويُشاع وجودُ اشتباه في اتصالهن منفردات أو مجتمعات بوقائع موته.

بعد قراءة واحدة من مسودات إحدى الكاتبات، وجدها كتابة جميلة شجية ممتعة، يعيبها تناول جوانب كثيرة بشكل سيُشتت تركيز مَن يقرأ المسودة، لذا توصّل المحرر إلى ضرورة تهذيب الكاتبة لهذه الغابة وتقليم أوراقها وأغصانها ونباتاتها الشيطانية، أو أن تنتقي مع المحرر فسيلة ليسقيها ويسمّدها معها. فهي كتابة تميل إلى الأحكام الجاهزة دون جُمل جزلة، بل عباراتها جافة لا هي ساخرة ولا عاطفية، كأن المرء يقرأ نشرة داخلية توزع مع دواء. تحكي تجربة ذاتية مؤلمة دون كلمة واحدة نلمس فيها شعوراً أو ندماً أو غضباً، بل الكتابة تقريرية مملة رتيبة.

صاغ ملاحظات يتصل أغلبها بكون هذه الكاتبة تختبئ وراء مصطلحات النسوية وغيرها من العبارات المترجمة حرفياً إلى لغتنا الجميلة بدلاً من التعبير بلغتها الخاصة عن أفكارها. بل تُسهب في وصف حساسية مصطلحات وذلك دون ربطها بموضوع المسودة، بحيث يسهل حذف هذه الفقرات الاصطلاحية دون عناء، وانتهى من كل ما سبق من ملاحظات بضرورة انتقاء فسيلة من هذه الغابة الموحشة، برعاية المحرر وغرسها في تربة جديدة.

توقع المحرر وصفه بـ«عدوّ المرأة» من قِبل الكاتبة حين تطّلع على ملاحظاته، لكنه لم يعد ينشغل بما يُقال عنه، وتوقّف عن تضييع وقته بشرح ما قصد لكلّ كاتب أو كاتبة، بل وصل لقناعة أن الكُتّاب، بمن فيهم الكاتبات، لن يرضوا عن المحررين. واعتاد تهدئة نفسه بالقول إن هذا عمله، وهذا رأيهم فيه، ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى، كما قال المحرر الأعظم. أخذ نفَساً عميقاً، ثم شارك الملاحظات مع الكاتبة، وما إنْ فعل حتى ازداد منسوب حرارة الجو، انزعج المحرر من تعرّقه. غيّر موقعه. جلس على مكتب آخر غير المُفضل.

لا أمل، الجوّ مكتوم. تحرك في المكتب، فتح كل منافذ الهواء، صنع تياراً حتى يكون المكوث في المكان ممكناً. لعبة صناعة التيار منحت المحرر نصف ساعة من الجلوس المحتمل. فكّ أزرار قميصه، وبعد تعمّقه أكثر في مسودة أخرى، خلعه. فكّر أن المؤلف ميت، كما نعاه رولان بارت، ولا يملك القدرة على إقناع القارئ إلا بما كتب. والمكتوب، لم يقنعه كقارئ، فقرّر كمحرر أن يقتله. فكّر في كتابة اعتذار للكاتبة بأن مادتها لا تصلح للنشر.

لم يبقَ إلا ربع طاقة البطارية. جوْجل اسمها، ظهرت صورها، سرّه ما لمح، فعاد إلى المسودة، والتهمها بعينيه، فراسلها بشأن خيط «احلوّ» في عينه بالمسودة، وهي سرعان ما تجاوبت، تراسلا فتكلما، لطّف كلامه، وسمع ضحكاتها على تعليقاته.

تشجّع بعرض مقترحه، هي لم تعترض، فتمادى، وأكد لها أن ما يقترحه سيجعل نصها مفهوماً وذا قيمة، بل سيقدّمها ككاتبة موهوبة. وعدته أنها ستفكر، لكنه زنّ ليقنعها، فموعد التسليم غداً، علّقت بأن كل شيء يمكن تأجيله بسبب انقطاع الكهرباء الذي صار مثل الهمّ على القلب، قالت ذلك بطريقة مضحكة كما هو متوقع في مواقف سخرية الإنسان من فشل حكومته. بسلاسة، نقل دفة الحديث إلى أمور أخرى لا علاقة لها بالنص، مثل وحدته في ظلام المكتب، وزاد من شكواه أن الوحدة ستستمر مع عودة الأنوار. وبعد مشاعر كثيرة قيلت، تحجّجت الكاتبة بضرورة إنهاء المكالمة مُعلنة رغبتها في عدم نشر المقال. وحين عاود الاتصال بها لم تردّ.

عاود قراءة مسودتها، وجد خيطاً آخر أعجبه، وقرر التسلي ببناء مخطوط آخر من الخيوط التي تحلوّ في عينيه من مسودة الكاتبة. المحرّر أحب كتابة الكاتبة بعد ما فعله بها، راسلها بالنسخة التي صاغها من خلاصة أفكارها في قالب من رؤيته لتقرر الكاتبة ما تراه، إن كانت تقبلها وتريد نشرها أم هي «مصرّة على عدم النشر مثل الكتاب النرجسيين». مع هذه الخطوة فرغت البطارية وانطفأت الماكينة. رنّ الموبايل، فوجد مؤشر البطارية يوشك على الموت، اتصال عاصف من الكاتبة صاحبة المصطلحات.

تنفعل. تغضب. تقذفه بمصطلحات أخرى غير واردة في المسودة. تقول كلاماً يوجع، يحذّرها من الإكمال، لكنها تتابع وتتمادى بأنه عالة، لا يمثل إضافة لأي نص يحرره، مجرد أداة للتشكيل والترقيم والتدقيق والتنسيق، خاصية يوفرها جوجل وغيره، وصارت متاحة للجميع بفضل الذكاء الاصطناعي. تلعنه بطرائق عديدة مؤلمة، وتقلل وتصغر من شأنه بمهارة ليتها توظفها في الكتابة، تحطّ من قدراته فهو لم يقدم طوال خدمته في بلاط التحرير فائدة حقيقية لأي كاتبة، بل عليه أن يخدم نفسه ويخدم البشرية ويعتزل ويبحث عن عمل له معنى، أو يعود لبلدهم، وفي غيطانها، ينتقي «فسيلة ليغرسها في طيزه». ثم مات الموبايل وحامله.

❁

في الحياة التي أصبح فيها المحرّر مرحوماً، اختفت نادية. هي نفسها لا تتذكر كيف تصرفت، كل هذا يقع في مرحلة ضبابية.

حدثت أمور. هي أمور لا شكّ أنّ نادية فعلتها، لكنها لا تتذكرها، مثل حضور الإسعاف والشرطة والنيابة، تبع ذلك إغلاق المكتب وتشميعه، وتشريح الجثمان والشروع في التحقيق، ومنح نادية إجازة مفتوحة، ومثولها للتحقيق وتلقيها دعماً نفسيّاً. من كل ذلك تتذكر نادية أمراً واحداً؛ تواصلها مع والدة المرحوم. الذكرى الوحيدة الباقية في رأس نادية أنها كانت ناقلة الخبر الثقيل، هي التي أخبرت الأم بما أثكلها. ومع كل تطورات الأمور، وكثرة الأقاويل والروايات غير الرسمية المنسوبة إليها أو المحكية عنها، التزمت نادية الصمت، لم تتحدث لوسائل إعلام ولا بثت على مواقع تواصل اجتماعي تغريداً أو فسبكة أو غيرها.

قيل عن موت المرحوم، إن نادية لم تكن مجرد زميلة، بل هي أكثر من ذلك. طُعّمت الحكاية بكل التوابل الممكنة، مثل أن حبّاً عصف بقلبَي المرحوم ونادية، وهما تركاه ينمو سرّاً. أجادا إخفاء سرهما، امتنعا من العمل معًا، وعمدا إلى أن يكونَ الواحد منهما في المكتب إبان غياب الآخر. حكى الناس عن نادية أنها لم تصدق أنه مات ميتة طبيعية، بالتأكيد لا يوجد موت طبيعي، لكنهم قالوا إنها موقنة بمقتل زميلها الحبيب، بل أشاعوا عنها أنه قُتل على يد إحدى كاتبات مسودات آخر أيامه، أو تواطأن جميعهن في الجريمة، هكذا حكوا ناسبين كل تلك الأقاويل إلى نادية التي تعلم أن المرحوم لم يكن يرحم في ما يخرج من تحت يديه من مسودات الكاتبات.

قويت حكاية مقتل المرحوم في جريمة ارتكبتها كاتبات آخر أيامه لغياب أي حقائق تنشرها الصحافة عن موته، فلم ينشر زملاء المرحوم نعياً له بسبب الارتباك الذي ضربهم، بعد تشميع المكتب وتفاقم آلام الحزن والانكسار والكآبة التي أغرقتهم داخل نفوسهم الثكلى. ومثل أثر الفراشة، لم تُنشر موادّ في أماكن عمل أخرى لأن جحا أولى بلحم ثوره.

وزاد تجاهلُ المحرّرين الأحياء للمرحوم مما يُقال عن المحرّرين بوصفهم شخصيات كريهة. فمهنتهم لا يُقبل عليها إلا المعتلّون اجتماعياً، فلا يوجد كاتب عاقل يريد التواري خلف كتابة غيره، ولا شخص يريد ألّا يُقرأ. كما أنها مهنة يكرهها الكُتّاب والقراء، وظيفة يمكن الاستغناء عنها، دون شعور أحد بغيابها، مثلاً ما أهمية رسم الهمزة قطعاً أو وصل؟ بل ما الفارق بين نص مضبوط ومرقم ومدقق دون مطّ أو تزويد، وآخر جُمَله طويلة والكاتب واخد راحته يرصّ الكلمات التي يحبها وتذكّره بأمه وخالاته وحبايبه وناسه. فالمحرر يقتل الألفة بين الكاتب ونصه، ويمنع القارئ من رؤية الفن على طبيعته. بل يعادي اللذات والذات، ويحوش الأخيرة ويمنعها من شططها وجنونها بحجج المنطق والتسلسل الدرامي، ويقتل العفوية ما إن يُدعى إلى النظر في أيّ نص. وفوق كل ذلك، وما يزيد من عيوب المحرر، أنه لا يفهم أو يقدر معاناة المبدعين، بل لا يفهم التحليقات الفنية ويلتزم قواعد وقوالب تقليدية جامدة. لذا صدّق الجميع حكاية مقتله، بل لا غرابة إنْ قُتل جميع المحررين الأحياء فهم لا يستحقون الحياة ما داموا لم يتوبوا من عملهم البطّال بحق الإبداع الذي يفقدهم آدميتهم، والدليل أنهم لا يصونون العِشرة ولا يتذكرون زميلهم ولو بنعي، بل لم يكتبوا سطراً واحداً يذكر محاسن زميلهم، إن وجدت هذه المحاسن من الأصل.

❂

رسمياً، لم يُعترف بسقوطه مقتولاً، بل أكد الطبّ الشرعي عدم وجود شبهة جنائية في موت المحرر، بل حدد سبب الوفاة بأنها غيبوبة سكّر. لكنّ تقريراً رسميّاً لإغلاق قضية لن يُغير ما سُمع وقيل وجرى تداوله حول المرحوم. بل سرت النميمة وأيّد الجميع حكايات مقتله وشملت الاتهامات كاتباته الأخيرات.

يفترض مصدقو حكاية القتل أن باب المكتب المفتوح لصناعة تيار هواء خلال ساعات انقطاع الكهرباء مكّن الكاتبات من الدخول إلى المكتب وقتله تحت جنح الظلام وتوقّف كاميرات المراقبة. لكنّ مصدقي جريمة القتل عكفوا على نشر تفسيراتهم وربطها بجرائم أخرى أقل شيوعاً مثل اختفاء محرّرين آخرين منهم رضا هلال.

لم ينتبه هؤلاء إلى أن الكاتبات، منفردات أو مجتمعات، لن يبذلن مشقة صعود أكثر من أربعين طابقاً للانتقام من محرر، فلا رجل يستحق كل هذا العناء.

وفي جميع الأحوال، سقط المحرر، وخفتَ بعد قليل من الوقت الكلامُ عنه وسريان النميمة بشأن مقتله، ولا يتذكره أحد إلا حين يصدر كتاب جديد لواحدة من كاتبات آخر أيامه ثم يُنسى، فالإنسان مُعتادٌ نسيانَ كلّ شيء، الكُتّاب ومحرّريهم، ولا يبقى في التداول غيرُ نميمة تشدّ أو خبر مضحك كان يوماً موجعاً.

أحمد وائل، كاتب مصري، من أعماله «تربية حيوانات متخيلة» (المحروسة، ٢٠٢٠) و«صواب [خاطئ]» (وزير، ٢٠٢٤).ومنذ نشر «ليسبو» (٢٠٠٨) لم يكرر تجربة كتابة الرواية، مُفضلًا إنتاج نصوص أقصر، تُنشر على فترات متباعدة قدر الإمكان، لأن كل تأخيرة في النشر فيها خيرة.يعمل حاليًا في «مدى مصر».

Copyright of this text is reserved with the authors